وقفة على طلـــــل!

للأستاذ علي الطنطاوي

[في حي المسجد الأموي ، وفي ظلال سوره العالي ، بين مثوى البطل الأجل الملك الناصر صلاح الدين والمدرسة الكلاسية الأثرية ، وبين المدرستين القديمتين السميساطية والاخنائية ، تقوم المدرسة الجقمقية الخالية المائلة — التي بناها سنجر الهلالي — وجددها الملك الناصر سنة ٧٦١ ه ثم احترقت فجددها الأمير سيف الدين جقمق فنسبت اليه] .

ما مررت بهذه المدرسة الخربة المعطلة ، وذكرت ما أودعتها من عواطفي ، وما تركت فيها من حياتي ، إلا تلفت القلب ، وصبى الفؤاد ، واعتلجت في النفس خواطر ، وانبثقت للعين صور ، أقر بالعجز عن صوغها ألفاظاً مقروءة وجملاً ، ووضعها في هذه القوالب الجامدة الضيقة وهي أشد انطلاقا من النور وأوسع من الزمان ... ولا أجد إذا أردت وصفها إلا هذا الحديث المعاد ، وهذا القول المكرر المعار الذي لا يفتأ الشعراء من عهد امرئ القيس الذي وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، يعيدونه ويرددونه ، وهو ما يزال ومعناه جديد في كل قلب ، سريع إلى كل لسان — فأسائل هذه الجدران المائلة ، وأخاطب ... هذه الغرف الخالية ... وآه ! لو تصف هذه الجدارن ما رأت وتنطق الأبواب ، وآه ! لو تعي المغاني وتحدث المباني! وأنى؟ ! وما وعت قلوب الناس ولا وفت حتى يفي الجماد !

هذه نفسي أسائلها : هل تعرف النفوس الوفاء ، وهي تدور مع الدهر الدوار كيفما دار ، تلبس لكل حالة لبوسها ، وتتخذ لكل يوم ميزانه . فيهون عندها اليوم ما عز بالأمس ، ويرخص ما غلا ويغلو ما رخص ، نرى الشخص فلا نباليه ، وقبلا كان مناط حبنا ، وكنا نقنع إن كان وصله حظنا من دنيانا ، أو كان موضع إكبارنا وكان رضاه نهاية متمنانا ، ونمر بالمكان لا نلتفت اليه وفيه ذقنا حلو العيش ومره ، وفيه أثر من أنفسنا ، وفيه بقايا من أعمارنا !

لقد عشت دهراً لو قيل لي فيه ، إنه سيأتي عليك يوم تجوز فيه بهذه المدرسة فلا تقف عليها إلا وقفة التذكر والحنين ، ثم تمضي لطيتك وتنساها بعد خطوات ، لما صدقت ! فكيف هانت علي هذا الهوان ، وقد كانت بالأمس نصف دنياي . وهل دنيا التلميذ إلا داره ومدرسته والطريق بينهما ؟ وقد كانت أبداً في فكري وحسي : في الصباح حين أتوجه اليها ، وفي النهار حين أكون فيها . وفي المساء حين أعود منها ، قد تجمعت فيها أفراحي كلها وأتراحي ، وأصدقائي جميعاً وأعدائي ، وكانت بضعة مني . بل كيف أنكرت ذلك الطفل الذي كان في سنة ١٩١٨ تلميذاً فيها يحمل اسمي وملامح وجهي ؟ كيف جوزت لنفسي أن أطرح آراءه ، وأهزأ بأفكاره ، وأحتقر ما كان يعظمه ؟ لقد ذهب المسكين ولا أدري أين ذهب ، وجئت من بعده ، ولكني لم أنس حوادثه. فهل الذاكرة هي الشيء الفرد الذي يبقى ثابتاً في الإنسان ، على حين تبدل العقول والأجسام ؟

سلوا الفلاسفة إن كان عندهم علم ، فما أنا بحمد الله من أهل الفلسفة !

* * *

سلوا الفلاسفة ودعوني أسترجع على باب هذه المدرسة أيامي التي ولت . ولئن عاد أقوام إلى ماضيهم ليستريحوا اليه ، ويتسلوا بادكار أحداثه ، فإنما أعود إلى الماضي لأحيا فيه ، وأفر اليه من حاضر أمقته وأجتويه . وأنا رجل كلما تقدمت به السن ازداد إيغالا في عزلته ، وهرباً من جماعته ، فكأنه يقطع كل يوم خيطاً من هذا الحبل الذي يربط زورقه بآلاف الزوارق الصغيرة التي تمخر عباب الحياة مجتمعة ، كما كانت تجتمع السفن إذ تجوز بحر الظلمات ، فلا تخوض فيه ماء بل نارا ، نارا من تحتها لا تعلم متى تنفجر فتزلزل أرض البحر وتشعل جبال الموج ، وأخرى من فوقها تحط عليها السماء رجوما ، وتفتح عليها من جهنم أبواباً ، وإن عباب الحياة لأشد من ذلك شدة وأعظم هولاً

... حتى غدوت وقد رث حبلي وتصرم الاخيوطا ، طائفة من الأصحاب لا يبلغون عد أصابع اليدين ، وأما كن هي أقل من ذلك ، لا ألقى سواهم ولا أرتاد غيرها . ولم يبق لي في لياليّ الطوال مؤنس أو سمير ، إلا هذه الكتب التي مللتها وملتني ، وصارت مودتنا تكلفاً وحديثاً مملولاً . وهذا الماضي ازداد كل يوم تعلقا به وحنيناً إليه ، أما المستقبل فأخافه حقاً ولا أجرؤ على التفكير فيه

لذلك ترانى إن لقيت رفيقاً من رفاق الصبا استوقفته وشممته علىّ أجد فى ثيابه عبقاً من أزاهير الماضى الحلو الذى سَرَّنا جميعا يحملنا مرح الطفولة وعبثها اللذّ ، فجسنا خلال رياضه ، وأوغلنا فى دروبه المعشبة ، ومسالكه التى فتّح على جانبيها الأقحوان وضحكت الشقائق ، أحاول أن أستطلع من وراء هذا الشباب الذى نالت منه الليالى حتى أشرف على الكهولة ، وهدته مطالب العيش وأخذت منه رواءه وبهاءه ، فبدا كالشجرة المنفردة القائمة على شفير الوادى ، عاجلها الخريف الظالم ببرده وعواصفه ... أحاول أن أرى من ورائه طلعة (ذلك) الصبىّ الفرح أبداً ، الضاحك اللاهى ، الذى كان رفيق يوماً والذى أحببته وقاسمته مرحه ولهوه ، فإذا لم أرها أبْتُ أجرّ رجل خائب قنع فى أعزّ آماله ، وفقد أحب أمانيه إلى قلبه ، وإن وقفت على معهد من معاهد الصغر ، أوملعب من ملاعب الطفولة ، فتشت فى زواياه وأركانه ، وتحسست الحجارة من جدرانه ، علىّ أجد بينها ذكرى حلوة قد خبأتها يوماً ونسيتها .

ولذلك وقفت اليوم على (الجقمقية) ولكنى لم أجد فيها ما أريد . لقد عدا سارقان على أحلى ذكرياتى فسرقاه فى غلس الليل ، كما يسرق النباشون الذهب من قبور الفراعنة ، ولم يدعا لى إلا كل تافه حقير ، فماذا أتحف القراء بعد الذى صنعه بى هذان اللصان : الزمان والنسيان ؟ !

***

هذه هى المدرسة التى أودعتها عهد الطفولة وذكرياته العذاب ، لا تزال قائمة جدرانها ، ماثلاً بنيانها ؛ وهـذه هى الطرقات التى كنت أسلكها غادياً إليها من دارى ورائحاً منها إليها ؛ وهذا هو (الأموى) العظيم الذى كنا نعرّج عليه كل يوم بكرة وظهراً وعشية ، وما بيننا وبينه إلا أن نخرج من باب المدرسة فندخل من بابه ، نتفاقل (الحكى) ونقفز ، فيلحقنا بعصاه ونحن نتضاحك ونروغ منه نعدو فى صحن الجامع الواسع النظيف ، حتى يكل المسكين ويتعب فيدعنا مكتفياً بما تبعثه به قريحته من روائع فن الهجاء ، فإذا انصرف عنا ، وذهب الحافز لنا على اللعب ، عقلنا ودخلنا نستمع إلى أصحاب الحلقات فيه . هذا هو (الأموىّ) لا يزال على عظمته وجلاله ، لا يدانيه فى سمته وفخامته مسجد فى دنيا الإسلام ، غير أن صورته فى خاطرى قد تبدلت وامحت روعتها وبطل سحرها . وماذا تصنع الجدران والسقوف إذا ذهبت الوجوه ، ومضى الساكنون ، وتغيرت الروح ؟ لقد أضحى الأموى غير الأموى ، فلا دروسه تلك الدروس ، ولا علماؤه أولئك العلماء . ولا جوّه ذلك الجو . إن المدن كالأشخاص تخلق كل يوم خلقاً جديداً . وقد ماتت دمشق التى نشأنا فيها ، دمشق الإسلامية المرحة الفاضلة التى لم يكن فيها ماخور مشهور ولا ميسر ظاهر ولا عورات باديات ، ولا حانات ولا ملهيات ، وكانت فيها المرأة لبيتها ، والرجل لأهله ، والعلماء عاملون بعلمهم ، مطاعون فى أممهم ، والحى كالبيت الواحد فى تعاون أهله وتعاطفهم ، والمساجد عامرة والرجولة بادية ، وأهل الدين لا يأكلون به الدنيا ، ولا يتخذونه تجارة . فيا أسفى على دمشق التى ماتت ! ويارحمة الله على تلك الأيام : أيام لم نكن نعرف من الدنيا إلا المتع الفاضلة ، والفضائل الممتعة ، نلهو ونلعب ولا كلهو فتية اليوم ولا كلعبهم . كان أقصى ما نأتيه أن نركض فى الأموى ، أو ننقسم عند المساء قسمين ، فنقيم بيننا سوق حرب سلاحها القالع والعصى ، وقد نجرح أو نكسر ، ولكننا نتعلم الرجولة والقوة ثم نرجع متفقين ، وأن نتلهى عن الدرس بقراءة قصة عنتر وحمزة البهلوان ، نتلقى منهما ما ينقصنا من علم الكر والفر والمبارزة والقتال ، وأن نمكر بالدرسين ، وإن أممنا لهواً وأردناه ، فشهود خيال الظل (كراكوز) وهو سينما تلك الأيام ، ولا يراه منا إلا مقدوح فى خلقه . أما التأنق والتجمل والترفق فلم نكن ندرى منه شيئاً . وكان من العيب فى أيامنا لبس البذلات لما تصور من أعضاء الجسم ، فكنا نجىء إلى المدرسة بالقنابز (الجلاليب) ، وكنا نتعجل الشباب فنتخذ دواء (كان معروفاً) يطول به الشارب وينمو به قبل الأوان .

فأين أيامنا فى هذه المدرسة ، وهل تعود هذه الأيام ؟ أين ذلك الشيخ الحبيب الى كل نفس ، الجليل فى كل عين ، شيخ الشام ومعلمها ستين عاماً ؛ ستين عاما وهو دائب على عمله العظيم يأخذ من هذه الأمة أطفالا صغارا ، فيردهم إليها شباباً متعلمين ، يصب من عقله الذى يزيد على البذل فى أدمغتهم ، ومن ايمان فى صدورهم ، فتعلم منه الولد وأبوه وجده . أى والله وهذه سجلات

مدرسة فسلوها تنبئكم ، ذلك هو الامام الشيخ عيد السفرجلانى .

***

هذه هى المدرسة ! هذا البنيان فأين السكان ؟ أين رفاقى فيها ؟ أين من كان يجمعهم مقعد واحد ، وكانوا سواء فى كل شىء لا يميز أحد منهم على أحد إلا بمقدار ما ينجح فى درس ، أو ينال ثناء من أستاذ . وكان فلان الفقير عريف الصف والمقدّم فى التلاميذ . وكان الشيخ يتخذ منه مثلا مضروبا لأبناء الأغنياء ، ويبشره بالمجد والمال والرتب ، وبأنه سيمشى على الورد المفروش حين يمشى أولئك على الشوك .

رحمك الله يا شيخنا فلقد أصبت فى كل ما كنت تقول إلا فى هذا . تعال انظر تر الدهر قد ضرب بيننا ، ففرق الإخوان ، وشتت الخلان ، فتفرقوا فى آفاق الأرض ، وانتثروا على سلم الحياة علاء وخفضاً ، وسار الأكثرون على الأشواك فدميت أقدامهم الحافية ، ومشى قوم على الورد والفل والياسمين ، وحازوا المال والمجد والرتب ، ولن أسمّى لك أحداً كيلا أفجعك بآرائك وفضائلك !

لا . لا أحب أن أعود إلى هذا الحاضر فدعونى أستمتع بادّكار ماضىّ كما يستمتع المنقطع فى البادية بما بقى فى سفرته من زاد المدينة التى خرج منها وأضاع طريق العودة إليها . إنى أبصر كل ما حولى قد تغير فأنكره وأحسّ كأنى صرت غريباً فى وطنى ، ولقد كنت أنا وأخى أنور العطار لا نزال نحن إلى الوطن ونراه فى صفحة البدر عند المطار ، وفى صفحة دجلة على الجسر . فتسيل قلوبنا رقة وشوقا ، ونحن فى بغداد بلدنا وبلد إخوة لنا أعزة كرام . وطريق الشام مفتوح ، فكيف بمن صار يحس أن وطنه قد طواه الزمان ، واختبأ وراء السنين ولم يبق إليه من سبيل ؟

فيا أيتها المدرسة — خبرينا لماذا لا نستطيع أن نعود أدراجنا فى طريق الزمان — كما نملك أن نرجع فى طرق الأرض ؟ لماذا لا نقدر أن نقف فى الفترة السعيدة من أعمارنا ، كما يقف المسافر فى البقعة الجميلة إذا جاز بها ؟

إذن لعدت أدراجى فلصرت العمر كله تلميذاً فيك ، أستمتع بجوار ذلك الشيخ النورانى ، وأعيش فى جو أنيس من نصائحه ومواعظه وقصصه ، وأبقى أبداً ذلك الطفل الذى لا يدرى ما الشرّ ، هذا ما تمنيت أن أكونه وهيهات أن تتحقق الأمانى الكواذب !

***

إنى كلما رأيت هذه المدرسة خالية خاوية خربة لا يحفل بها أحد ، ولا يذكر شيخها إنسان ، أيقنت أن الجحود سجية فى هؤلاء الناس . أتنسى دمشق شيخها ومعلمها الذى أحسن إليها ؟ إن هذا الشيخ إن لم يكن عالما مؤلفا ، ولا سياسيا حاكما ، ولا فيلسوفا مفكرا ، فلقد بنى فى نهضة دمشق ركنا لم يبن أضخم منه عالم ولا حاكم ولا فيلسوف . لقد كان معلم أولاد ولكن أولاده صاروا قادة هذا البلد . لقد أنشأ مدرسة منظمة يوم لم يكن فى دمشق إلا الكتاتيب . لقد كان مربياً بالفطرة لم يقرأ بستالوسى ، ولا تعلم أصول التدريس ولكنه كان أحسن مربّ رأيته ...

... فيا أيها القراء لا تقولوا ، ومن الشيخ عيد السفرجلانى ، وماله يملأ صفحات الرسالة بأخبار نكرة فى الرجال ... فكم فى ظلام النسيان من عظماء حقا ، وكم فى ضياء الشهرة من أصنام قائمة نظنها ناساً ، وهى مبنية من جامد الصخر ، أو بارد النحاس !

دمشق (المحكمة الشرعية) **على الطنطاوى**

مجلس مديرية بنى سويف

الادارة الهندسية القروية

تقبل عطاءات لغاية ظهر يوم ٢ - ٥ - ١٩٤٥ عن عملية ردم برك ناحية بنى عدى مركز الواسطى مديرية بنى سويف ويقدم الطلب على ورقة دمغة من فئة الثلاثين مليما للحصول على الشروط والمواصفات من الادارة الهندسية القروية نظير دفع مبلغ ٥٠٠ مليم بخلاف ١٥٠ مليم أجرة البريد . ٣٣٥١